من تراب الطريق!

(١٩٠) فكرة الجدوى، والحياة ! (*)

كلنا قد ينسى العادى اليومى المألوف الذى يتكرر بلا انقطاع إلا عند المرض أو السجن أو ما شابه ذلك .. لا يتوقف مجرى هذا العادى بسبب الثورة أو الحرب أو الهجرة .. لأن هذا العادى هو أوليات ولبنات الحياة نفسها، والثورة والحرب والهجرة لا تكون إلا من أحياء وبين أحياء .. وهى حالات طارئة تطرأ على حياتهم لا تمحوها ولا يمكن أن تعطلها كلية .. فالكل لابد أن يأكل ويشرب وينام ويضحك ويتكلم ويسعى لعيشه ويفرح ويحزن وينضج ويشيخ ويلتقى الذكور بالإناث وتتولد الأولاد ويرى مألوف السن والموت !

ومضى الزمن يبعد عنا الأشياء والأشخاص ويخفى التفاصيل ويعطى الجميع طابعا مجردا أسطوريا غير حقيقى - ويفقدها باستمرار المشابهة بنا وبأشيائنا الحاضرة ويجعلها من طراز غير طرازنا الحاضر ! فنحن ندخل فى عالمنا العقلى اليومى ما هو قريب ويسمح لنا بقدر من المعرفة التفصيلية، أما البعيد الذى لا نعرف أو لم نعد نعرف تفصيلاته فإننا لا نحرز منه إلا صورة عامة من تركيب الذاكرة والتصور والخيال أو من التعلم بالمعنى الواسع لهذه الكلمة .. وهذه كلها صور عامة غير واقعية وبيننا وبينها اختلاف الحى المتعين بتفاصيله عن التصور الغامض الذهنى الذى قد يبقى رمزا لمحاسن عامة أو عيوب عامة . ومضى الزمن إذ يأكل

(*) المال ٢٠٠٩/١/٨

تفاصيل الوقائع والأحياء لا يسمح بالدوام والبقاء .. والانتقال بالتواتر لا يحدث إلا بالنسبة لما صار مجرد صورة أو رمزا أو أسطورة حتى حين نصفه بأنه تاريخي وجزء من التاريخ !

وعدم رضانا عما يتعين ويحدث باطراد في حياتنا - قد يبدو أنه شيء يتعارض مع تمسكنا بالحياة وحرصنا عليها، لكن الحال أننا نتمسك بالحياة نفسها كما هي كإمكانيات واستطاعات وآمال ورغبات ومخاوف ولا نتمسك بتعيناتها سواء المنسوبة إلينا أو إلى الآخرين أو إلى الطبيعة .. ويبدأ تمسكنا بها يضعف حين يداخلنا شك قوى بأن حياتنا ليس فيها أكثر مما تعين وحدث فعلا .. أي ليس فيها أكثر مما رأيناه ورآه غيرنا منها .. عندئذ نبدأ فقدان إيماننا الحيواني أو الطفلي بها وبجعبتها التي لا تنفد، ويضمر أو يتلاشى اعتقادنا بأن عندها ما قد يرضينا أو لابد أن يرضينا بطريقة أو بأخرى رضاء ليس تافها ولا عرضيا ولا وهميا !

ونحن نعيش أغلب الوقت دون أن نهتم بالحكم على حياتنا وقيمتها - تحت فرض أنها قيمة على كل حال مهما كانت .. وهذا قد يفسر إنفاقنا لها كيفما اتفق بلا حساب ولا عناية وترك الآخرين يدلفونها إلى إنفاقها بلا عناية ولا احتمال .. كأن فكرة الجدوى غير أصيلة بالنسبة للحياة .. ولكن الخلط بين الجدوى وبين العناية غير معقول بالنسبة للحياة .. فالحياة تستلزم العناية بها .. وإذا كانت الجدوى سؤالاً لا تسأله الحياة الطبيعية، وإنما يسأله عقل الإنسان فقط - فإن العناية تتطلبها الحياة والطبيعة في أدق الأشياء وأكبرها !